

العصفور والصيد: هوامش على ومضة "تصفيق" لعصام

الشريف

أ. د. بهاء الدين محمد مزيد

جامعة سوهاج، مصر

"العصفور الذي غادر سربه وحيدا، صفقت له يدا الصياد."

(عصام الشريف: تصفيق)

هذا معنى واسع رحب في عبارة ضيقة محكمة. فيها عصفور ينتمي إلى سرب، وصياد ينتظر خروجه من السرب فيصفق لهذا الخروج. فعلان لا أكثر: فعل المغادرة من جهة العصفور وفعل التصفيق من جهة الصياد. "وحيدا" تصف حال العصفور وهو يترك السرب. وهي في طباق واضح مع كلمة "سربه". والهاء التي تتصل بكلمة "سرب" لا تفيد الملكية، بل الانتماء.

هذا حال رفقاء السوء حين يهللون لخروجك من كنف أسرتك وأهلك إليهم، فقد أصبحت صيدا سهلا ولقمة سائغة، وحال أعدائك المتربّسين لا يستطيعون نيلا منك إلا إذا غادرت قومك وتمردت على ذوبك. "إنما يأكل الذئب من الغنم الشاردة"، لأنه لا يملك مهاجمة قطيع حاشد من الأغنام.

الغدر أصل المغادرة وفي لسان العرب "العَدْرُ ضدُّ الوفاء بالعهد ... العَدْرُ ترك الوفاء" وفي "المغادرة" مفاعلة أي "تارك" و"متروك" وفي الترك نقض لعهد القربى أو الجوار أو الصحبة. وفيه كذلك نقض لعهود الوفاء مع التقاليد التي قد تكون بالية معطّلة. قد يكون الترك اضطرارا وقد يكون اختيارا وقد يكون خيرا وقد يكون شرًا. في ومضة (تصفيق)، ليس هناك ما يشير إلى أنّ المغادرة فعل إيجابي ولا إلى أنّها علامة على الإبداع والتميّز. انظر من يصفق للفعل. العلاقة بين العصفور والصيد هي علاقة عداوة ومطاردة أزليّة، فلا يعقل أن يفرح الصيد إلا حين ينال من العصفور.

تأمل هذه المعادلة في هذا المربّع، واستنتج منها ما إذا كانت المغادرة في النصّ محمودة أو مذمومة وتذكّر أنّ الصيد عدو العصفور اللدود:

صديقك يفرح لنجاحك

صديقك يحزن لفشلك

عدوك يفرح لفشلك

عدوك يحزن لنجاحك

تصفيق الصياد فيه ابتهاج وتشجيع. لكنّه ليس فرحا للعصفور بل فرح به وفيه. إذا صفّق لك أعداء وطنك حين تخرج على وطنك وأهلك، راجع نفسك، فأغلب الظنّ أنّهم يريدون الانفراد بك. سوف يفتكون بك، وسوف يستخدمونك طعاما لاصطياد غيرك من بني وطنك.